عمر المختار والجهاد ضد الاستعمار الإيطالي ونظرة الألمان المعاصرين له

إعداد

د./ هلموت مايخر

جامعة هامبورج — ألمانيا الغربية

○

ترجمة

الأستاذ سعيد عبدالعزيز عبدالله

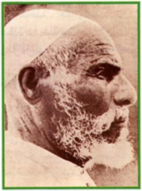

○

شيخ
المجاهدين
عمر المختار

○

بعض التمهيد للمصادر والتعليق عليها :

هناك مثالان على تكريم الصحافة الألمانية لعمر المختار في حياته يدلان على مدى الاحترام الكبير الذي لقيه البطل ونضاله الشجاع خارج نطاق الجبل الأخضر وحدود البلاد الإسلامية، أي في أرض غير المسلمين . وكما يتضح لنا من وثائق وتقارير السفارة والقنصلية الألمانيتين ، ومن البحوث الأكاديمية ، وتقارير وكالات الأنباء ، والصحافة ، في ذلك الوقت نجد هناك تبايناً واسعاً وتنافراً داخل المنظور الرسمي ، والرأي العام الألماني ، يعكس اختلافاً كبيراً في التوجهات ، والاهتمامات السياسية ، والثقافية ، والعقائدية . وحيث إن قلة المصادر المتاحة وندرتها لا تسمح بالتصنيف الشامل والقياس العلمي لها فإني اكتفي برسم صورة لما كانت تحمله التقارير للجمهور الألماني والرسميين الألمان ، وبذلك أبرز البعد التاريخي لجهاد عمر المختار من واقع الفهم الألماني المعاصر له مهما بدا من قصور في تلك الصورة .

الوثائق الرسمية :

المصادر غير المنشورة التي اعتمدت عليها في البحث موجودة في أرشيف الخارجية الألمانية في بون . وقد وجدت المفيد منها تحت عنوان الشعبة السياسية الثانية (سياسة ٢) سياسة
ــ طرابلس ، وهي تشمل ما يلي :
ــ الأوضاع السياسية في طرابلس ، مجلدان ، الفترة من ١٩٢٠ ــ ١٩٣١م .
ــ الإدارة الداخلية ، مجلد واحد ١٩٢٧ ــ ١٩٢٩م .
ــ الاقتصاد ، ٧ مجلدات ١٩٢٨ ــ ١٩٣٦م .
ــ رسائل ألمانية روما ــ ايطاليا ــ مستعمرات مجموعة ٧١٣ ــ ١٩٢٠ ــ ١٩٣٩م .

المجموعات الصحفية :

أمكنني الاستفادة من مجموعات القصاصات الصحفية التي يحتويها أرشيف الاقتصاد الدولي الشهير بهامبورج Welt Wirtschafts archiv (HWWA) وكذلك معهد هامبورج للعلاقات الدولية الذي باشر نشاطه عقب الحرب العالمية الأولى على نمط المعهد الملكي للعلاقات الدولية في لندن. وفي كل حالة تم ترتيب قصاصات الصحف حسب البلد الذي تتناوله، بينما أعيد ترتيب القصاصات في أرشيف الاقتصاد العالمي حسب المسميات الحديثة للبلاد أو الدول مثل ليبيا وسجلت على ميكروفيلم، أما تلك المتاحة في معهد العلاقات الدولية فما تزال حسب النظام المعاصر لحفظ الملفات بمعنى أن التقارير الصحفية عن عمر المختار تحتويها الصناديق الخاصة بالمستعمرات الايطالية. وفي كلتا الحالتين فالمجموعات كبيرة الحجم. وبسبب التنوع الكبير في التقارير المحفوظة وتعدد الذين قاموا بعملية التقصيص وجدت من الأفضل استعمال القصاصات الصحفية الوثائقية في كلا المجموعتين ــ وهذا ما تم في هذه الدراسة .

جهاد عمر المختار والغزو الايطالي لليبيا من واقع التاريخ والفهم الألمانيين لهما .

١ ــ الفترة حتى عام ١٩٢٢م :

التقارير الألمانية عن مقاومة عمر المختار للغزو الإيطالي لليبيا تؤكد عادة استمرارية الكفاح وذلك بتركيزها إما على دور زعماء مثل عمر المختار وإما على تنظيم السنوسية وإما على السجل التاريخي لمطامع إيطاليا في الحصول على مستعمرات إفريقية. وبالرغم من ذلك هناك مراحل أو أطوار معينة يمكن تمييزها في هذا الكفاح. ومن المراحل الزمنية الثلاث ١٩١١/١٩٢٢م ،

١٩٢٢/١٩٢٨ ، ١٩٢٩/١٩٣١م لا يبدو هناك في المرحلة الأولى أي تقارير تَذْكُر عمر المختار. ذلك أن التفاصيل الخاصة عن حياته قبل الحرب العالمية الأولى جاءت فيما بعد ، وهي تلك التفاصيل التي لابد أنَّه كان لها دور حاسم في صياغة نظرته العامة للحياة وللتحديات التي يلزم أن يواجهها المسلمون . وحتى عام ١٩٢٨م فإن القارىء الألماني لم يكن يعرف شيئاً عن وِظيفة عمر المختار المدنية قبل أن يحمل السلاح . ففي عدد مايو نشرت مجلة «صدى الإسلام» ومقرها برلين نبذة عنه : «السيد عمر المختار المناضل الشهير من أجل الحرية في الجبل الأخضر كان في السابق شيخاً لزاوية القصور بالقرب من المرج (شمال غرب بنغازي) ، والتي كانت في ذلك الوقت مقراً للحكم التركي . وفي بداية الهجوم الإيطالي على ليبيا كان عمر المختار هو أول من ساعد الأتراك الذين كانوا قد شرعوا في الجلاء عن بنغازي . وعقب زيارة قام بها لشيخ من مشايخ السنوسية في «الكفرة» ، قام على الفور بتنظيم فرقة من ألف مقاتل تقريباً من قبيلة «عبيد» لمساعدة الأتراك حيث صمد جيشهم في بنيدة . وقد حذا حذوه كل شيوخ السنوسية في تعبئة رجالهم والانضمام للأتراك . وطوال الحرب حرص عمر المختار على القتال في الصفوف الأمامية . وبعد عقد الصلح صمم أهالي البلاد ، بتحريض منه في المقام الأول ، على مواصلة القتال . ومنذ ذلك الحين صار يقاتل في الجبل الأخضر حيث كانت إمداداته من السلاح تعتمد أساساً على غنائمه من غاراته على الإيطاليين» .

ولم تكن «صدى الإسلام» جريدة أو مجلة ، ولا يبدو أن انتشارها قد تعدى الأقلية الإسلامية في ألمانيا إضافة إلى بعض المستشرقين ، وربما بعض المتخصصين والمهتمين بالشئون الدولية من الدارسين والمسؤولين الألمان . ولم أجد لـ «صدى الإسلام» هذه أي أثر في أرشيف وزارة الخارجية الألمانية ، كما لم يرد ذكرها في الصحف السيارة التي رجعت إليها .

ويمكن رصد موقف طبقة الصفوة في المجتمع القيصري الألماني وقتذاك من واقع وصف موجز نشر في المجلة النصف الشهرية «الأرض» مجلة في الجغرافيا والأجناس البشرية، والرحلات، والصيد».

ففي عددها الصادر في ديسمبر عام ١٩١٢م عقدت مقارنة بين الوضع في ليبيا والوضع في البلقان في سياق المواجهة بين الغرب والشرق حيث ذكرت المجلة «أنه في كلتا الحالتين حاول الإسلام والشرق القديم مقاومة الغرب الحديث . والمقارنة درس في حد ذاته . ففي جنوب شرق أوروبا يثبت الشرق عجزه عن قتال أوروبا . وفي برقة وطرابلس يحمل الشرق القديم البنادق العتيقة والطبنجات ضد المدافع الآلية دون ما خطة سوى الوازع الوحيد لديه ألا وهو التعصب الأعمى»(٦) .

من هذه النظرة القاصرة لسياسة إيطاليا الاستعمارية الفاشية ومن تغطية الصحافة الألمانية فيما بعد يمكن القول أن هذا النموذج النمطي من الغطرسة المادية والايديولوجيا الاستعمارية قد استمر إلى ما بعد الحرب العالمية . أما فيما يخص التحالف الألماني التركي في الحرب عامي ١٩١٥/١٩١٦م الذي انضم إليه السنوسيون في ليبيا ، ومعهم عمر المختار ، فإنه لم يكرس لدى الألمان تضامناً مع شعب كانت نهاية الحرب بالنسبة له بداية خطر استعباد جديد ..

في بداية العشرينيات ، وهذا ينسحب أيضاً على الفترات اللاحقة ، كانت الأخبار الألمانية الرسمية والتقارير الصحفية عن جهاد عمر المختار تصطبغ بالصبغة الإيطالية . والسبب في ذلك واضح وهو غلق القنصلية الألمانية في طرابلس أثناء الحرب العالمية الأولى ، وبعدها أهملت التجارة الألمانية مع طرابلس أو بنغازي لدرجة أنه في ربيع عام ١٩٢٧م رأت كل من القنصلية العامة في نابولي والسفارة في روما أنه لا ضرورة لإعادة فتح قنصلية في طرابلس . زد على ذلك عدم تمكن الصحفيين من دخول ليبيا دون تصريح إيطالي وهو ما كان صعباً . وعلى ذلك كانت التقارير المرسلة للخارجية الألمانية عن أحداث ليبيا والقتال في الجبل الأخضر تكتب في روما حيث يتواجد أيضاً مراسلو الصحف الألمانية للشمال الإفريقي . كذلك كان هناك اهتمام متزايد بمراقبة الصحف المصرية التي كانت تصل أوروبا عن طريق لندن وهذا حدث ، كما سيتضح فيما بعد ؛ حين فرضت إيطاليا الفاشية رقابة صارمة على المطبوعات .

كان أهم ما يلحظ على التقارير الألمانية قبل صعود موسوليني للسلطة في اكتوبر عام ١٩٢٢م هو التشكك الحذر في أهداف إيطاليا النهائية في ليبيا . ومثال ذلك تقرير من السفارة الألمانية في روما في ٢٢ نوفمبر عام ١٩٢٢م ، فقد وردت فيه خطة شيوخ وأعيان طرابلس بإنشاء دولة تحت قيادة سيد أحمد إدريس الذي كان في ذاك الوقت ، ومن منطلق إسلامي ، يشارك مصطفى كمال القتال ضد اليونانيين والانجليز في الأناضول . وكان تحذير ميركاتللي القوى ضد أي إجراء من هذا النوع موضع جدل على أساس هل هناك نية فعلية لدى الحكومة في روما لمساندة سيد إدريس في هذا الاتجاه طالما أن الأقوال لابد وأن تتلوها أفعال . ومن ناحية أخرى ركَّزت تقارير السفارة في روما على سياسة إيطاليا التقليدية في ضرب القبائل المختلفة والشيوخ بعضهم ببعض بهدف الحيلولة دون تشكيل حكومة مركزية في إقليم طرابلس التي كانت حَرِيَّةً ، إن تمكنت من توحيد الفصائل المختلفة بحرمان إيطاليا من نفوذها السياسي . ومع ذلك لم تكد تمر أربعة شهور حتى رأت حكومة روما الفرصة مواتية لاستقبال وفد من قبل المجلس الدائم لجبل «غاريان» . وكما أفاد تقرير السفارة وقتها لبرلين فإن مدى استعداد

إيطاليا لقبول تسوية يعتمد على مدى سيطرتها على طرابلس ، وهو أمر لابد منه لمنع طرابلس من الانجراف إلى فلك دولة استعمارية معادية ، هي فرنسا على الأرجح .

وفي تقرير متابعة آخر بتاريخ ٥ مايو عام ١٩٢١م استعرضت السفارة سياسة إيطاليا بشكل شامل . ففي ذلك الوقت أجابت الأحداث نفسها على التساؤلات . ذلك أن البرلمان الذي كانت إيطاليا قد سمحت به في برقة عقب الحرب العالمية عقد دورته . وفي ظل هذا الظرف كان معنى استقبال وفد جبل «غاريان» هو محاولة لتحسين المناخ وتحاشي إفساد الاجتماع في برقة وما يمكن أن يسببه ذلك من تأثير دعائي في الشرق الأوسط وشمال إفريقية . وواضح أن صاحب هذا التقرير ، ل.س. ديبل ، L.S.Diel ، لم يكن على يقين مما إذا كان ذلك كله جزءاً من خطة عامة لاستقطاب القوميين العرب في كل مكان خلف إيطاليا ، أم أن الأمر ببساطة هو استجابة خيِّرة لمفهوم الانتداب الصادر عن عصبة الأمم بشأن الولايات التي كانت تابعة للدولة العثمانية . ومما لا شك فيه أنه مهما كانت دوافع السياسة الإيطالية ، فإن اجتماع المندوبين التسعة والستين لبرلمان برقة والذي كان معظم أعضائه من أنصار السنوسية والقبائل المختلفة في المنطقة لم يشكل فقط دفعة هائلة للبعث الإسلامي وتأسيس سلطة إسلامية ، ولكنه كان أيضاً عملاً دستورياً يتعذر على حكومة ملتزمة بالقانون في روما أن تبطله بسهولة . ويدل تقرير «ديبل» على أن وفد جبل «غاريان» بدا وكأنه قد وقع تحت تأثير الاستقبال. فالبرغم من أن وزير المستعمرات السنيور «روسي» Signor Rossi لم يزد على قوله لأعضاء الوفد أنه استمع فقط إلى وجهات نظرهم الخاصة، فإنهم قاموا بتسليم الصحافة الإيطالية لدى سفرهم بياناً استرضائياً للغاية حتى لا يصرفوا حكومة روما عن تأييدها للمسلمين. ومع ذلك يكشف التقرير عن قلق واضح من أن سياسة الحكومة المؤازرة للمسلمين قد غدت قضية متفجرة في السياسة الداخلية والحزبية من شأنها أن تسبب عاجلاً أم آجلاً مشاكل واسعة النطاق إن لم تكن تعقيدات دولية.

تلك النذر السيئة بظهور الفاشية الإيطالية وبروز سياسة استعمارية مستبدة لا يجب النظر إليها في الإطار الضيق لسياسة إيطاليا الداخلية بل أيضاً في نطاق السياسات التي اتبعتها كل من بريطانيا وفرنسا التي ضربت عرض الحائط بأسس مفهوم الانتداب . فمن ناحية أخرى أسهمت كل من لندن وباريس في ظهور السياسة الاستعمارية الفاشية في ليبيا . وهذه الحقيقة التي لا سبيل إلى إنكارها أثّرت في المقاييس التي كانت تحكم التقارير الألمانية عن سياسة إيطاليا وإجراءاتها الحربية ضد ليبيا فيما بعد . فقد دأبت تلك التقارير على التركيز على قضايا السياسة العامة في الشرق الأوسط وشمال إفريقية ، والتي أدى الاهتمام بها آنذاك إلى تدعيم

تلك الدوائر الألمانية المعارضة لفقدان المستعمرات الألمانية في إفريقية ، ونظرت فيما بعد إلى سياسة موسوليني في شمال إفريقية على أنها درس في كيفية استعادة تلك المستعمرات .

كيف كان موقف شيوخ السنوسية ورجال عمر المختار حين كانت نذر العاصفة تتجمع في الأفق ؟ إذا أردنا فهماً كاملاً لهواجس الخوف لديهم لابد من التحفظ تجاه كلامنا السابق . ذلك أنه رغم وجود اتجاه معين في سياسة إيطاليا قبل ظهور الفاشية نحو دعم مسلمي ليبيا ورغم تنامي الغضب الفاشي ضد تلك السياسة واتهامها بالضعف فإن هناك حقيقة لا يمكن تجاهلها وهي أن إيطاليا قبل العهد الفاشي كان لديها النية أيضاً في إقامة «الشاطىء الرابع» ، لحدودها بضم ليبيا . وقد أيقظت محاولات الاستعمار الاستيطاني ، وإقامة المستوطنات الزراعية ، رغم بطئها ومظهرها العلمي التجريبي في البداية ، انتباه شعب ليبيا وشيوخ السنوسية . وتكشف الوثائق الألمانية الرسمية ، رغم صياغتها بعيداً عن موقع الأحداث ، بعض التفاصيل عن نشوء مقاومة محلية وعن انتقال زمام المبادرة من حاكم برقة الرسمي إلى القبائل والأهالي عموماً مع عام ١٩٢٢/٢١م . وبحكم اتفاق بين إيطاليا والأمير سيد إدريس كان قد تحدد يوم ٢٥ أكتوبر عام ١٩٢١م موعداً نهائياً لتسليم جميع الأسلحة من قبل الأهالي والتسريح الكامل للحاميات من العساكر السنوسية . وقد رأى شيوخ السنوسية ومعهم شيوخ القبائل و كذلك عمر المختار أن من غير الحكمة الانصياع للموعد المحدد في المطالب الإيطالية . ومما لا شك فيه أن عيونهم كانت يقظة للنذر التي كانت تتجمع في الأفق . فقد جاء في تقرير للسفارة الألمانية بتاريخ ٨ أكتوبر أن شيوخ القبائل اجتمعوا وتفاوضوا لأسابيع طويلة في الأبيار ، جنوب بنغازي بسبعين كيلومتراً ، مع مندوبين عن الأمير إدريس . ويلمح التقرير إلى أن رؤساء القبائل أحيطوا علماً بالمطالب الإيطالية قبل الموعد المحدد بوقت قصير ، وأن رأى الأمير هو الذي فرض عليهم في الواقع . وواضح أن قرارهم كان هو المقاومة والإبقاء على الحاميات، وعقد انتخابات جديدة للبرلمان، وحق عقد دورة برلمانية بعيداً عن متناول مدفعية الأسطول الإيطالي في بنغازي. وكما يفيد التقرير كان على الحكومة الإيطالية أن تستجيب إلى حد معين لأن البديل الوحيد كان اللجوء لإجراء عسكري فعال. ولسوء الحظ هناك فجوة زمنية مدتها أربعة عشر شهراً لا تغطيها تقارير السفارة . وفيّ أواخر عام ١٩٢٢م وصل تقرير من سفارة ألمانيا بالقاهرة يعتمد على بيانات في الصحف المصرية «اللواء» ، و «السياسة» ، و «الأهرام» ، تعلن عن بدء المقاومة في طرابلس وعن عقد اتفاق بين العربان في كل من برقة وطرابلس لتشكيل جبهة بين مصر وتونس . كذلك ورد ذكر المفاوضات الجارية بين إيطاليا وبريطانيا ومصر بشأن رسم حدود مصر الغربية(١٣) .

ويمكن إيجاز الوضع في نهاية تلك الفترة من المواجهة الليبية الإيطالية وعشية ظهور السياسة الاستعمارية الفاشية في أربعة تطورات رئيسية حددت مسار الأحداث فيما بعد وهي :

١ ــ حالة التحفز واللجوء للمقاومة بين القبائل وشيوخ الزوايا في برقة .
٢ ــ اضطلاع الشيوخ وزعماء القبائل بأعمال السيادة بمعزل عن مساومات الأمراء مع الإيطاليين.
٣ ــ التقارب بين أهالي طرابلس وبرقة ورغبتهما المشتركة في توثيق التعاون .
٤ ــ ظهور الفاشية في إيطاليا .

إن استمرارية الكفاح الليبي ضد الاستعمار الإيطالي وعلى الأخص استمرارية تفاني عمر المختار في سبيل حرية بلاده وسيادتها وحرية أوطان المسلمين عموماً تمثلان خير شاهد على أن اللجوء لتنظيم المقاومة حدث في فترة أفرطت فيها السياسة الإيطالية ــ رغم وصف المراقبين لها بالليبرالية ــ في الاعتداء على حق شعب آخر في الحرية والحياة طبقاً لمشيئته . إن جهاد عمر المختار لم يكن رد فعل لسياسة إيطاليا الاستعمارية الفاشية . إن تلك السياسة زادت فقط من حدة ذلك الجهاد . وعموماً تعطي الوثائق الألمانية الرسمية صورة إجمالية وليست متكاملة عن سير الأحداث . ويعد تسجيل اجتماع رؤساء القبائل في الأبيار في خريف عام ١٩٢١م ذا أهمية خاصة لأنه يشير إلى مراكز القوى الحقيقية في البلاد .

الفترة من ١٩٢٢ ــ ١٩٢٨م :

كان ذلك خلال عام ١٩٢٢م حين ازداد الشعب الألماني علماً بحركة المقاومة في ليبيا . ففي نهاية إبريل كتبت جريدة فيزر تسايتونغ Weser-Zeitung وهي صحيفة يومية ذات اتجاه قومي ليبرالي تصدر في بريمن Bremen عن استعدادات الكونت فولبي لحملة عسكرية كبرى إلى المناطق الداخلية من برقة(١٥) . وكان هناك ذكر عابر للتقارب الحديث بين العرب في كل من برقة وطرابلس . وتناول مقال الجريدة بتوسع معارضة الاشتراكيين الإيطاليين لسياسة حاكم طرابلس الجديدة . وقد اتهم الكونت فولبي بأنه خضع لتأثير مستشاري السوء الذين قدَّموا مصالحهم الخاصة ، زيادة على ذلك فإن أهداف الحملة قد تقضي على النتائج المرجوة منها حيث من المرجح أن تتوحد القبائل والمذاهب المتفرقة منذ أزمان بعيدة وكذلك الأحزاب السياسية الموزعة بين الشيوخ وكبار القوم . وأشار مقال الجريدة للسياسيين الذين قالوا بأن التطورات في ليبيا جاءت نتيجة لموافقة بريطانيا على منح مصر استقلالها . وقد خُدع الجمهور الألماني في القول بأن إيطاليا كسبت في السنوات العشر السابقة الكثير من الأصدقاء في

المستعمرة وأن الأمور لم تبلغ بعد درجة السوء . وفي نوفمبر من نفس العام خرجت جريدة (دويتش ألجمايني) Deutsche Allgemeine في برلين بعنوان كبير : ثورة في طرابلس(١٦) . ونقلاً عن الصحيفة الفرنسية (لوماتان) Le Matin والإيطالية مساجيرو Messagero أفادت الجريدة أن تمرداً قام في برقة هوجم فيه مقر البعثة الإيطالية وأشعلت فيه النيران ، وأن الحكومة سيَّرت بوارج وقوات عسكرية إلى هناك . لكن الصورة الحقيقية للموقف أخفتها الرقابة الصارمة للنظام الفاشي الجديد في روما . وأصبحت الأخبار المصرية التي كانت تصل أوروبا عن طريق لندن هي الرائجة . فإلى جانب قول (الأهرام) المصرية إنَّ لجوء شيوخ السنوسية للقوة قد يكون انعكاساً لانتصارات مصطفى كمال في «تشاناق» Chanak قالت الجريدة أيضاً أن الشيوخ هم الذين اقنعوا الأمير سيد إدريس بإعلان نفسه حاكماً على كل طرابلس(١٧) . وقد هاجم تقرير للسفارة في ٦ يناير عام ١٩٢٣م البيانات التي أدلى بها وزير المستعمرات الفاشي الجديد «فِدِرْ زوني» الذي نبذ سياسة الحكم السابق في التفاهم واستبدل بها أسلوب القمع العنيف لكل مقاومة أو معارضة . وجاء تعيين الجنرال «بونجيوفاني» حاكماً جديداً على برقة كدليل على القرار الفاشي(١٨) حيث سبق له الخدمة فيها عامي ١٩١١/١٩١٢م .

كانت تقارير السفارة عام ١٩٢٣م تتناول أساساً أحداث طرابلس حيث تصاعد الضغط سريعاً على الإيطاليين . فقد ورد فيها أخبار الاستيلاء على أسلحة فرنسية حديثة ، وكذلك وقوع محاربين فرنسيين أسرى والذين كان وجودهم هناك لغزاً(١٩) . وأفادت التقارير أن نتائج المواجهات الأولى مع المقاتلين العرب والتي أدت إلى احتلال مصراطة ، تمخضت عن خسائر فادحة في الرجال والعتاد لدى الإيطاليين . ومن تقارير عام ١٩٢٤م عن سير العمليات في برقة ضد قبائل عبيد ، وبني براعسة تعين على الإيطاليين بذل جهد ضخم لإخضاع الإقليم(٢٠) .

كان واضحاً أن هدف الاستراتيجية الإيطالية بناء حزام عسكري أمني بين طرابلس وبرقة حيث يتقدمون منه جنوباً نحو خط «سوكنة» و «زلّة» و «عقيلة» وكذلك «جالو» وقد فشلت حملة عسكرية كبرى ضد قبيلة المغاربة وقوامها خمسة عشر ألف رجل وألفان من البنادق(٢١) ، وذلك لأن القبائل كانت أخف حركة من التشكيلات الثابتة للقوافل العسكرية الإيطالية . كذلك نجحت جماعات المجاهدين العرب مراراً في اختراق الحزام الساحلي بين طرابلس وبرقة . وطبقاً للتقارير الألمانية كان موطن الضعف لدى الإيطاليين هو الهجمات الليلية ضدهم مثلما حدث في منطقة «الغبرة» ليلتي ٢٩ ، ٣١ أكتوبر حين فقد الإيطاليون ضابطين وتسعة وثلاثين جندياً(٢٢) .

وجاءت الأخبار عن مواجهات مماثلة حول واحة «المزدة» Mizda في غبلة Ghibla جنوبي طرابلس بحوالي مائتي كيلومتر . ورغم عدم قلة خسائر الإيطاليين هذه المرة إلا أن عدد القتلى العرب كان مفزعاً ، والسبب لجوء الفاشيين إلى استخدام المدافع الرشاشة والقصف الجوي حيث لم يكن للعرب حيلة أمامهما في الصحراء المكشوفة بطرابلس . ويلاحظ أن السمة الأساسية للوثائق الألمانية الرسمية عن هذه المرحلة الثانية من الكفاح الليبي ضد إيطاليا هو تحفظها إزاء التقارير الإيطالية عن الانتصارات التي حققتها حملاتهم العسكرية في الشمال الأفريقي . ومن واقع البحث وراء ادعاءات النصر هذه الصادرة عن النظام الفاشي بدأت التقارير تدرس الأوضاع الداخلية في إيطاليا ، وفئات المعارضة اليسارية المختلفة . كذلك تابعت تلك التقارير باهتمام كبير علاقات إيطاليا بالقوى الاستعمارية المجاورة ، وخاصة فرنسا .

ونشرت الصحافة الألمانية مزيداً من التفاصيل عن واقع الأحداث في ليبيا . وبدأ القارىء الألماني يعرف لأول مرة المزيد عن أسلوب البدو في محاربة الإيطاليين ، كما بدأت كذلك التغطية الصحفية لعمر المختار نفسه . فقد كتب الدكتور (راثينْز) Rathjens تقريراً مطولاً في مجلة (أرشيف الاقتصاد العالمي) بهامبورج عن المفاجآت التي وجدها لدى زيارته الأخيرة لطرابلس في رحلة داخلية قطع فيها مائتين وسبعين كيلومتراً . فقد ذكر أن المنطقة التابعة للإيطاليين تمتد في العمق من مائتين إلى ثلاثمائة كيلومتر بينما الجزء الآمن منها لا يتعدى مائة كيلومتر . وقد أثبت العرب تفوقهم في حرب الصحراء . ذلك أن أسلوبهم المباغت في الكر والفر السريع جعل الإيطاليين في خطر داهم .

وقد لجأ الإيطاليون إلى الأسلوب الوحشي في إعدام كل من يرونه مذنباً أو شبه مذنب دون وازع من ضمير . ومع ذلك فالسمة الغالبة في التقرير هي خلوه من الإدانة الأخلاقية أو الشجب لسياسة إيطاليا الاستعمارية أو الفاشية . ذلك أن اهتمام الدكتور «راثينْز» المنصَرف إلى الإمكانات الزراعية للمناطق الخصبة في البلاد جعله يوافق ضمناً على أهداف الاستعمار الاستيطاني الشامل ، وكان من رأيه أن أهداف إيطاليا الاستعمارية توجب احتلال ليبيا بكاملها . وقد اعتبر زيارة موسوليني المرتقبة لطرابلس مقدمة لتلك المهمة .

والآن ، كيف قامت الصحافة الألمانية ، التي كانت وثيقة الصلة بالفكر الاشتراكي ، بتغطية تلك الأحداث ؟ في عددها الصادر في ١٣ إبريل ١٩٢٦م نشرت صحيفة «صوت هامبورج» التابعة للاشتراكيين الديموقراطيين مقالاً تحت عناوين بارزة : موسوليني في إفريقية . العصر النابليوني للفاشية . ليبزج أم ووترلو ؟» الفاشية أم كارثة أوروبية ؟ وقد تناول المقال خطبة «للدوتشي» ألقاها قبل ذلك ، وحذر بشدة من أي تحالف إيطالي ألماني في إفريقية .

وكان التحذير يقصد القوى الألمانية التي يراودها الأمل في اقتناص فرص جديدة لاستعادة المستعمرات المفقودة في تلك القارة ، والتي ربما شحذت همة الجماعات الفاشية في ألمانيا للتحرك على هذا الأساس . وقد انتهى المقال بالعبارة التالية : «يجب أن يذهب موسوليني لحتفه وحده حيث ذلك هو سبيل كل الحكام الطغاة» . وكما سبق ذكره شهدت السنوات ١٩٢٧ ، ١٩٢٨م جهوداً ضخمة حاولت فيها إيطاليا الفاشية إعادة الميزان لصالحها . غير أن احتلال منطقة الزاوية المهمة في واحة «جغبوب» لم يتمخض عن انتصار كما هللت له الدعاية الإيطالية . فقد تركها العرب في الوقت المناسب ولم يفتّ ذلك في عضد المقاومة . ولجأ الإيطاليون بعد إفاقتهم من الوهم الدعائي إلى أسلوب وحشي بربري . فخلال عام ١٩٢٧م اكتشف الجمهور الألماني أنه عقب تعيين الجنرال (تيروزّي) حاكماً جديداً لبرقة أصبح القصف الجوي هو الرد الإيطالي على أسلوب البدو في القتال . ففي اشتباك عسكري بتاريخ ٢١ يوليو أسقط الإيطاليون أربعين قنبلة زنة الواحدة مائة رطل تركت آثاراً واضحة⁽²⁸⁾ . لكنه لم يكن هناك من جديد إدانة للحرب الإيطالية أو لأسلوب إيطاليا في خوضها . وعلى عكس ذلك بلغت السخرية حد تصريح بعض المراسلين أنه مراعاة للاتفاقات الدولية لم تحمل الطائرات الإيطالية قنابل الغاز⁽²⁹⁾ .

كانت «صدى الإسلام» في برلين ثانية هي الاستثناء الوحيد في لغة المطبوعات الألمانية الذي أشير إليه سابقاً . ففي ٥ أكتوبر عام ١٩٢٧م نشرت مقالاً لشخص يدعى سيد الرباع من بلدة تسمى سلونتا Slonta شمال شرق بنغازي في منتصف المسافة بين المرج ودرنة ، وكان العنوان هو : السياسة الاستعمارية الفاشية في برقة⁽³⁰⁾ ، السيد الرباع يعطي وصفاً تفصيلياً عن محاولات عمر المختار الاحتفاظ بعنصر المبادأة ضد العدو الإيطالي ، وعن التقارير الإيطالية المشوهة للأحداث . وقد أكد أنه في اشتباك حديث مع عمر المختار حقق الإيطاليون فيه نصراً ولكنه كان استثناءً سعيداً بالنسبة لهم . ذلك أن عمر المختار له حضوره الدائم في المناطق الواسعة بين بنغازي وبرقة حيث معاقله في الجبل الأخضر ووادي الصوف قرب ساحل المتوسط . أما التقارير الإيطالية عن المعارك الأخيرة مع عمر المختار فقد وضعها الرباع في سياقها الصحيح ، أي كدليل على محدودية السيطرة الإيطالية على برقة . وحسب رواية الرباع «اعتقد الإيطاليون أن قوة عمر المختار كانت ألفاً ومائتي رجل مسلح فقد منهم تسعمائة ، ومع ذلك فشلوا في عملياتهم الجوية والبرية المشتركة الأخيرة للإمساك به . وبدلاً من ذلك اتجه عمر المختار إلى بني عبيد ، والبراعسة ، والحسامع آل عبيدات التي تشكل أقوى قبيلة في إقليم برقة ، وكانت دائماً مصدر إمداداته . إن تعاونه الوثيق الآن مع آل عبيدات سوف يقلب من جديد

الموازين لصالحه ، ويؤدي لطرد الإيطاليين من برقة» . وأوضح سيد الرباع «إن خط المقاومة الرئيسي ضد الإيطاليين يبعد أكثر إلى الجنوب على خط واحات جالو ، وجردوبيا ، وجغبوب . لذلك فإنه مع افتراض انتصار الإيطاليين على عمر المختار في الجبل الأخضر فلن يعني ذلك هزيمته لأنه سوف يظل يقاتل خلف ظهورهم ، وسوف يبقى خط الجبهة الرئيسي سليماً» . وقد كتب الرباع عن وحشية الحرب الفاشية التي لم تتميز بارتفاع معدل القتل والإعدامات الجماعية فحسب بل شملت أيضاً تصريحات السياسيين التي غدت فيها كلمة سحق العدو بديلاً مفضلاً عن الإبادة(٣١) .

غير أن الآمال الكبار التي علقها الرباع على تعبئة عمر المختار لقبيلة العبيدات تهاوت بفعل استراتيجية الدم والحديد وأساليب الحرب الفاشية . فالاستيلاء على المجيبرة أوصل الجبهة الإيطالية جنوباً إلى خط عرض ٢٩° . ويبدو أن الزحف الإيطالي أدى بالقائد السنوسي سيد محمد الرباع إلى قبول عرض إيطالي بالتفاوض السلمي . وقد التزمت معظم الصحف الألمانية بالدعاية الإيطالية الرسمية التي زعمت استسلام الرباع وترحيله منفياً لإيطاليا . أما «صدى الإسلام» فقد قدمت للشعب الألماني رواية مختلفة(٣٢)أكد مصداقيتها تضارب التقارير الإيطالية عن سير العمليات الحربية . واعتمدت «صدى الإسلام» بشكل كبير على تقارير صحيفتين مصريتين هما (الصورة) و «وادي النيل» . وطبقاً لروايتهما أسقطت الطائرات الإيطالية منشورات على واحتي جالو ، وعقيلة تطلب من سكانهما وقف القتال وإعادة النظام والأمن مقابل وعد بالحرية الكاملة . وقد طلبوا من الرباع قبول القدوم والتفاوض في القيادة العسكرية في جردوبيا . وفور وصوله تم القبض عليه وترحيله . وحين قام الإيطاليون بعد ذلك بترويج الأنباء الكاذبة عن استسلام الرباع طواعية استأنف الناس القتال واختاروا قائداً جديداً لهم . ومن المرجح أن الإيطاليين وجَّهوا إنذاراً بالاستسلام مغلفاً بشروط مبهمة . وحسبما كشفت «صدى الإسلام» فإن إيطاليا لها سجل تاريخي في هذا اللون من الخداع . وانتهى تقرير «صدى الإسلام» المؤرخ ٥ مارس عام ١٩٢٣م بتسجيل عمل بطولي لعمر المختار ورجاله . فقد تمكنت فرقة من مقاتلي البادية من الوصول لساحل المتوسط قرب بريكة بقيادة عبدالله أبّي سلوم ، وشبلي سوداني كما نشرت جريدة «دويتش الجماميني تسايتونج» Deutsche Allgemeine Zeitung في برلين بتاريخ ٢٤ مارس عام ١٩٢٨م أخباراً عن هجمات جسورة تقوم بها مفارز صغيرة من البدو لم يتمكن الإيطاليون من صدها إلا بعد قتال عنيف . في غمرة تلك التقارير عن معارك عمر المختار نشرت «صدى الإسلام» تحية الإكبار والإجلال إلى عمر المختار التي سبق ذكرها في البداية والتي كان عنوانها «تحية إجلال لأحد زعماء الحرية في الشمال الإفريقي —

خمسة عشر عاماً من الحرب في برقة ـــ عمر المختار قائد الجيش ذو الـ ٧٨ عاماً ـــ من زعيم ديني إلى بطل من أبطال الحرية» .

ومن الغريب ـــ ولكنه حدث ـــ أن «صدى الإسلام» أشارت هذه المرة إلى تمجيد مماثل نشرته الجريدة الإيطالية «جورنال إيطاليا» Giornale d'Italia .

٣ ـــ الفترة من ١٩٢٩ إلى ١٩٣١م :

إذا نظرنا من زاوية التغطية الصحفية الألمانية والتقارير الرسمية المرسلة لوزارة الخارجية الألمانية ، وكذلك من تسلسل الأحداث فيما بعد فإن عام ١٩٢٩/٢٨م بدأ يشهد أفول نجم عمر المختار رغم تفانيه من أجل حرية شعبه ، وشجاعة حملاته العسكرية ، وجسارة قتاله ، وبراعة حيله السياسية .

كانت التقارير الواردة من السفارة الألمانية في روما أوائل عام ١٩٢٩م تركز بطبيعة الحال على طرابلس وفزان حيث جاءت تصرفات جراتسياني ، القائد الإيطالي الفاشي ، فيهما شاهداً على ما سوف يحدث . كان محمد بن حاج حسن ومعه زعماء ورجال اتحاد القبائل تقودهم عائلة سيف النصر الشهيرة قد عادوا إلى جبلة ، وسرتيكة اللتين ظن الإيطاليون أنهما تحت كامل سيطرتهم(٣٤) ، ثم شرعوا في مهاجمة المنشآت الإيطالية . وكان واضحاً أن خط الجبهة الإيطالية بين زلّه وجالو ، وجردوبيا ، وجغبوب ، الذي تم احتلاله قبلها بسنتين ، به ثغرات وأن السيطرة عليه كانت غير مأمونة(٣٥) . وعليه قام جراتسياني بحشد قوات ضخمة ووضع خطة تكفل له القضاء على حكم آل سيف النصر . وقد أدت انتصاراته التكتيكية الأولية التي سار فيها طبقاً لخطته الجديدة في مهاجمة عدوه بالطوابير الميكانيكية المتحركة معتمداً على استطلاع خصمه بالطائرات إلى أن يلجأ عمر المختار إلى تفادي نفس المصير لرجاله في الجبل الأخضر وذلك بعرض التفاوض على هدنة أو على اتفاق لإحلال السلام . وعلى أية حال فالتقارير الألمانية جديرة بالنظر . ففي تقرير من السفارة الألمانية في روما لبرلين في ٢٥ يونيو عام ١٩٢٩م جاء أن قيام الإيطاليين بعمليات تمشيط جديدة منظمة وتعيين المارشال بادوجيلو حاكماً على كل من طرابلس وبرقة قد أديا بعمر المختار ومعه سيد حسين بن محمد السنوسي ، وفاضل بوعمر ، إلى عرض استسلام غير مشروط . واستطرد التقرير محذراً برلين في عدة مسائل سوف نأتي على ذكرها فيما بعد . ويكفي القول هنا أن التقرير أكد ما سبق معرفته تواً من «صدى الإسلام» وهو أن عمر المختار كان يقاتل خلف خطوط الإيطاليين ، وأن استسلامه لا يعني انتصارهم كما تقول دعايتهم في تهليلها لاستسلامه المزعوم .

في نفس الوقت كان جراتسياني القائد اللا أخلاقي الطموح يندفع بقواته مخترقاً إقليم فزان في اتجاه الجنوب الغربي من حدود ليبيا عاجزاً عن حصار وإبادة قبائل سيف النصر التي كان معظمها قد عبر بسلام حدود تونس الفرنسية قرب (تارت) ، بينما انحدرت مفارز مسلحة صغيرة إلى جناحي الإيطاليين عائدة إلى الشمال ثانية ، وهناك وصف وتحليل دقيق لحملة جراتسياني بكاملها في إقليم فزان كتبه (فرايهر فون ريختهوفن) في تقرير مطول من ثلاثين صفحة ، الذي ربما كان ملحقاً عسكرياً بالسفارة الألمانية في روما . وكما ذكر ريختهوفن فإن الحملة تميزت بالوحشية المتزايدة مع احتلال الواحات واحدة إثر أخرى بعد اجلاء سكانها عنها . ففي العمليات العسكرية جنوب مرزق عمد الطيارون الإيطاليون إلى قصف الخيام والبدو أينما وجدوهم . لذلك كان جراتسياني يغلي غضباً لحرمانه من مجزرة كبرى بتعيينه حاكماً جديداً على برقة الأمر الذي أصبح على عمر المختار ورجاله أن يتحملوا وطأته الرهيبة هناك .

هذا وليس هناك معلومات كثيرة في وثائق الأرشيف الألماني وفي الصحافة الألمانية تكشف عما حمل عمر المختار على الاتصال بالجنرال بادوجليو ، وما الذي دعاه إلى استئناف القتال بعدها بوقت قصير . الكثير من التقارير الصحفية عن سير القتال حتى وقوعه في الأسر خريف عام ١٩٣١م التزمت بالخط الدعائيّ الإيطالي القائل بخيانة عمر المختار . غير أن تقرير ريختهوفن يعطي دليلاً على أن عمر المختار عرض شروطاً بطلب الاستقلال الكامل وليس الاستسلام غير المشروط . فهو يذكر أن عمر المختار رفض لقاء بادوجليو والتفاوض معه في بنغازي أو بالقرب منها لوقوعها تحت الاحتلال الإيطالي ، كما أن رجاله قالوا أن مواكب فرسانهم لا تستقبل بادوجليو إلا فوق أرض لا يحتلها إيطاليون . ترى هل كان عمر المختار بتصرفه هذا يعبِّر عن اعتزاز رجل يعشق الحرية أم كان يحبط مكيدة سبق أن وقع فيها سيد محمد الرباع في الماضي القريب أم كانت هناك خطة ما للثأر من بادوجليو ؟ في غياب الدليل تباعدت روايات المراسلين الألمان . وتقرير ريختهوفن يعني أن الاجتماع قد حدث ولذا يستخدم التعبير الاستعماري الرائج وقتها وهو أن «الهدوء والأمن الآن يعمَّان برقة بكاملها تحت يد الإيطاليين» . لكنه في نهاية التقرير يعود إلى الموضوع من جديد قائلاً إن الإيطاليين وقعوا في خدعة ، وأن السكان لأسباب مجهولة تباطأوا في تسليم أسلحتهم . واستنتاجه أن اشتغال معظم الجيش الإيطالي بعيداً في فزان دفع عمر المختار إلى التخلي فجأة عن مقاومته السلبية واقتناص الفرصة . وبسبب نقص القوات أوكل لسلاح الطيران الإيطالي قصف الجبل الأخضر . ويسجل فون ريختهوفن أن العثور على جثة أحد زعماء قبيلة سيف النصر بين قتلى جماعة مسلحة كانت متجهة إلى برقة ، بعد معركة

مع قوة إيطالية ، قد يكون له علاقة بتغير خطط عمر المختار . هذه الرواية أيضاً ، تترك الكثير من الأسئلة لمزيد من البحث لأن القارىء وقتذاك كان عرضة للتخمينات . لكن النتيجة المؤكدة التي لابد وأن يكون القارىء قد خلص إليها هي أن المجرى الحقيقي للأحداث يدحض الرواية الإيطالية عن خيانة عمر المختار واستسلامه غير المشروط ، بل وعن حياة عمر المختار وبطولته نفسها .

وبحلول شهر مايو عام ١٩٣٠م كتب فون ريختهوفن لبرلين أنه بعد احتلال فزان وبعد تعيين جراتسياني حاكماً لإقليم برقة ، باتت هزيمة عمر المختار مسألة أسابيع أو شهور فقط . وبعدها بسنة أكد تقرير للسفارة بروما أن الإيطاليين لم يمكنهم بعد إخضاع برقة لتعذر إنهاء القتال في الجبل الأخضر ، كما أن المواقع العسكرية على طول خط عرض ٢٩° عجزت عن قطع خطوط المواصلات بين الجبل الأخضر وواحات الكفرة . ومضى التقرير يصف الإجراءات التي يتخذها جراتسياني : ترحيل كافة السكان إلى معسكرات جماعية ، حظر نشاط السنوسية وزواياها ونزع ممتلكاتها(٤٠) ، بناء خط من الأسلاك المكهربة على طول الحدود مع مصر ، الاستخدام المكثف للطيران والأوامر المشددة للطيارين بقتل أي إنسان أو حيوان يرصده الاستطلاع الجوي فوق الجبل الأخضر(٤١) . واختتم ريختهوفن تقريره أن كل هذه الإجراءات لم تنجح حتى الآن في كسر مقاومة الأهالي ، وأن الدوريات الإيطالية الصغيرة أو الطيارين الذين تتحطم طائراتهم كانوا دائماً هدفاً للهجوم والقتل . وفي منتصف ديسمبر عام ١٩٣٠م نجحت جماعة مسلحة من واحة الكفرة في اختراق الخطوط الإيطالية والوصول للساحل حيث باشرت عمليات عسكرية لعدة أسابيع قبل التمكن من دفعها ثانية إلى الداخل دون القضاء عليها .

وبينما استمرت حرب العصابات تلك مسببة انتكاساً في معنويات الدعاية الإيطالية استعد جراتسياني لغزو الكفرة واحتلالها . وخلال عام ١٩٣٠م فشلت خمس حملات استطلاع(٤٢) . وكان من الصعب الحصول على معلومات عن أسهل المسالك لاحتلالها ، ومدى قوة الحاميات السنوسية فيها . غير أنه بنهاية سبتمبر تم إقامة رأس جسر وقاعدة تموين أمامية في بيرزغن على مسافة مائتي كيلومتر شمال الكفرة . ومن هناك بدأ القصف الجوي بعدها مباشرة في نفس الوقت الذي كثَّف فيه جراتسياني استعداده للهجوم الرئيسي .

ولا تهمنا هنا التفاصيل اللوجستية في خطط جراتسياني التي ملأت تقارير السفارة الألمانية ، ولكن تهمنا الطبيعة العامة للحرب في برقة التي تأكدت بربريتها المتزايدة بما فيها مواصلة سياسة المعسكرات الجماعية للسكان(٤٣) . وكانت هناك تقارير أخرى من

القنصليات ، والسفارات في القاهرة(٤٤) ، والقدس ، وبغداد ، واندونيسيا ، تسجل احتجاجات الهيئات الإسلامية المحلية إزاء الوحشية الإيطالية ضد إخوانهم في الدين ، ففي بغداد ، مثلاً ، وصلت برقيات وتوقيعات من جمعية الهداية الإسلامية بمسجد السلطان علي ، ومن علماء سامراء . ومع ذلك لم تؤخذ تلك الاحتجاجات مأخذ الجد حيث تشككت التقارير من كونها جاءت بتحريض من قوى الانتداب ، بريطانيا وفرنسا ، ضد إيطاليا . كذلك جرى اتهام تلك الدولتين بممارسة سياسة ذات وجهين حيث لا يخلو ماضيهما من نفس الأسلوب .

وعموماً أظهرت الصحف الألمانية ميلاً مماثلاً إلى مقارنة الممارسات الإيطالية بسياسات البطش الاستعمارية التي كانت تتبعها فرنسا وبريطانيا(٤٨) . ومع ذلك فإن تهكمها لم يصل لمستوى فون ريختهوفن الذي قارن في تقاريره بين الأداء العسكري المتواضع لجراتسياني في إقليم فزان وبين العنف العسكري الرهيب في الحرب الألمانية الاستعمارية ضد قبائل هيريروس في جنوب غرب إفريقية(٤٩) ، ثم تساءل متعجباً لماذا لم يستفد الإيطاليون سياسياً من النساء الأسرى .

ومن أبرز الظواهر في تقارير الصحافة الألمانية في تلك المرحلة الثالثة من الصراع الليبي الإيطالي هو التأكيد المتزايد على وجوب فرض القانون والنظام كضرورة للتنمية الشاملة للأرض الزراعية الخصبة في إقليم برقة . كان هناك في تلك التقارير دائماً ما يعني أن أهل البلاد لا يعرفون كيفية الاستغلال الأمثل لما تحت أقدامهم من ثروات زراعية . وكان يناقض هذا التحامل ما يرد في التقارير نفسها من حقائق أن عنف المقاومة في الداخل قد يرجع إلى قيام الإيطاليين بطرد الناس من مراعيهم وواحاتهم ، بل ومن تلك المواطن الصحراوية التي كانوا يتحايلون على العيش فيها في ظل ظروفها القاسية(٥١) . وفي ١٣ يونيو عام ١٩٣٠م نشرت جريدة كولنشي تسايتونغ Kolnische Zeitung أخباراً مثيرة مفادها أن جراتسياني قد بلغ به الأمر حد التفكير في ترحيل كافة السكان إلى إيطاليا حيث تعدادهم لا يزيد في نظره على سكان مدينة باليرمو . كانت الصعوبات التي يلاقيها جراتسياني في التغلب على أساليب عمر المختار في حرب العصابات تصل بتفاصيلها للقارىء الألماني ، حتى ولو كانت على سبيل إمتاع القارىء . وفي ذلك أفاضت التقارير في وصف جاذبية الصحراء والسحر النافذ الذي تمارسه شخصية ذلك الشيخ القابع فوق الجبل الأخضر ، والجو الرومانسي الذي أضفته بلاد الشمال الباردة على الحياة الخشنة في الصحاري المشرقة بأشعة الشمس . أما الظروف العصيبة التي كان يعيشها سكان الجبل الأخضر فلم يكن لدى القارىء الألماني أية فكرة عنها . لكن

تقارير جريدة Vossische Zeitung المحترمة ومقرها برلين كانت لا تحفل كثيراً بتلك الإثارة والرومانسية . فهي لم تكتف بالتحفظ تجاه مصطلحات الدعاية الإيطالية مثل «التمرد» و «قطاع الطرق» و «العصاة» .

بل إنها عمدت أيضاً إلى شيء من التفصيل عن العوامل التي مكّنت عمر المختار من مواصلة جهاده ألا وهي التفاف الناس حوله(٥٤) .

كان خبر استيلاء الإيطاليين على الكفرة واحتلالها هو أهم ما أوردته التقارير الصحفية في ربيع عام ١٩٣١م . وقد هللت الصحف لذلك واعتبرتها ضربة معلم من جراتسياني(٥٦) ، ولم يكن هناك تغطية مماثلة لوضع أهل الواحة ودفاعاتهم الضعيفة . وقد ذكرت جريدة Kolnische Zeitung أن ضابطاً إيطالياً برتبة كولونيل يدعى بُرزّي كان أسيراً من قبل في الواحة لمدة عشرة شهور . وبينما هو هناك لاحظ تدهوراً في سلطة كبار قادة السنوسية حيث كان كبيرهم قد هرب إلى واحة بوسكو الشمالية . وبعد تمكن الضابط من الهرب فكان تقريره حافزاً لجراتسياني على المجازفة باحتلال الكفرة. وأفادت بعض التقارير عن وقوع قتال عنيف(٥٨) وإصابة المدافعين بالذعر من قوة الإيطاليين . وكانت أهمية سقوط الكفرة تتمثل في قطع خطوط الإمدادات وتهريب السلاح الوحيدة الباقية مع مصر . ووفقاً لتقارير السفارة في روما ، كان مقدراً أن يؤدي احتلال الكفرة سريعاً إلى تصادم دبلوماسي كبير مع كل من فرنسا وبريطانيا ، حيث كان ما زال عليهما احتواء المد الفاشي الجديد في إيطاليا نحو تكوين امبراطورية في إفريقية .

أما عن انعكاسات سقوط الكفرة على جهاد عمر المختار في الجبل الأخضر فقد كان هناك تراوح بين الشك واليقين أن هزيمته القريبة باتت مؤكدة .

لكن حماسة عمر المختار المتأججة للقتال دفاعاً عن حرية شعبه، وعقيدته، واستقلاله، وعن بلاد العرب والمسلمين ، واستبساله المستميت ، ومهارته في مواصلة التعبئة ، وقدرته الهائلة على تحمل الصعاب من كل نوع : كل ذلك مكنّه من الصمود ثمانية أشهر أخرى . وفي معركة النهاية مع الإيطاليين كاد أن يفلت من جحيم النيران التي تصبُّها آلة الحرب الإيطالية بقيادة جراتسياني . لكن مصرع جواده وجراحه أوقعاه في الأسر . وكتبت جريدة Vossische Zeitung تعليقاً على نهايته في تقريرها : «وهكذا تُقْضى الفروسية في عصر التقنية» . وكانت آخر كلماته حين سيق به إلى حبل المشنقة بعد أسره بقليل وكما جاء في تقرير مراسل جريدة (هامبورجر) هي الآية القرآنية :

«إنا لله وإنا إليه راجعون»

● خاتمـــة ●

هذا العرض للإدراك الألماني المعاصر لكفاح عمر المختار في سبيل حرية بلاده واستقلالها وسيادة بلاد العرب والمسلمين عموماً له معناه في أكثر من ناحية . ذلك أن محدودية المصادر لا تسمح بتقييم نهائي لهذا الإدراك الألماني المعاصر له . كذلك يجب أن نضع في الاعتبار أن ألمانيا في ذلك الحين كانت تعيش محنة زوال امبراطوريتها ، ووجدت من الصعب عليها التوافق مع مستجدات الظروف الاجتماعية والسياسية لوجودها . في ظل هذا السياق التاريخي لألمانيا المقهورة التي ذاقت نقمة هذا الزوال لسلطانها ، والتي كانت تجاهد نفسها بحثاً عن توجّه جديد يبدو هذا الاهتمام الواسع والمكثف بأحداث ليبيا شيئاً مثيراً للدهشة .

لكن هذه حقيقة تعطي أكثر من دليل على الصورة التي عكسها جهاد عمر المختار على الصعيد العالمي . كذلك فإنها توضح بشكل يدعو إلى الأسى أن الكثير من المراقبين والمراسلين المتابعين للأحداث لم يروا في الفاشية ذلك الشيطان الرهيب الذي عرفناه . فالمستوى التقني المتقدم للفاشية ، وغلظتها الوحشية ، وإرادتها الحديدية في بلوغ الهدف بالتدمير الساحق لقي استحساناً لدى بعض الدوائر . لذلك فإن نوعية الإدراك الألماني المعاصر لجهاد عمر المختار ضد الاستعمار الإيطالي يعكس أيضاً نذراً سيئة بظهور الفاشية الألمانية . ولكن ــ وهذه حقيقة ــ كان هناك أيضاً بدون شك قطاع من المجتمع الألماني يحمل لعمر المختار ، وشخصيته الوضاءة ، ولتفانيه وكفاحه كل ما هو جدير به من احترام

وأخيراً فإن من جملة الدروس المستفادة من هذا العرض لتقارير الصحافة والوثائق الرسمية يبرز في رأيي درس هام تمثل في ذلك الصوت الوحيد لجريدة «صدى الإسلام» . وحين كتب ليوبولد فايس من مكة في مارس عام ١٩٣١م لجريدة «زيوريخ الجديدة» Nue Zuricher Zeitung متفكّراً في المصير الذي ينتظر عمر المختار في الجبل الأخضر ، ختم تقريره قائلاً :

إن جهاد عمر المختار جسَّد مثلاً عظيماً لا يمكن أن يضيع . واليوم تتجدد الحاجة إلى صوت آخر أبعد صدى كي يحمل تلك الرسالة إلى الغرب .

● ● ●